بسم الله الرحمن الرحيم

تجديد دماء العربية

توطئة

هذه دعوة إلى التجديد لا التبديل، لأن التبديل لا ينبغي إلا حيث فسدت الدماء فسادا لا رجاء بعده . ثم إن التبديل تخلٍّ عن الشخصية،
و تفريطٌ في الهُويّة ، و إفراط على النفس باستسلامها غير المشروط لقهر دماء غريبة عليها لا تجرى مجراها إلا في عروق ضامرة من جسد ضاوٍ متهالك ، و هيهات أن يقع ذلك موقعاً من لغة ذاتِ مجد مؤثّلٍ كالعربية .

التبديل حركة من الخارج إلى الخارج (أي الخواء) أيضا لأن اللسان آلة الفكر و صولجان ملكه و إزميل نحته ،و الفكر الذي يستأصل لسانه من الجذور ليصطنع لنفسه لسانا سابق التجهيز والتشكيل من قِبَل فكر مغاير هو أشبه بالوعاء المخروق الذي لا يعي و لا يستوعب و لا يُمسك على شئ .أما التجديد فإنه غزو باتجاه المستقبل يتآثر وكلّ تيارٍ محيط بما يزيد الفكر ثراء ، فيتسع محيط اللغة و تترامى شطآنه، و كلما ترامت وتباعدت لا تلبث أن تلامس شطآن غيرها من لغات سادت تحت إمرة فكر صقلته علوم يضيق بها الزمن ، و يَعجزُ عن ملاحقة وثبها صوب مستقبلٍ أبعدَ من مستقبله الوشيك ! نعم ، إن الفكر المعاصر – والعلمي منه بخاصة – ينضو عن جسده ثوب الزمن و يوسّع آفاق اللغة نحتا وتوليدا في تكاثر لفظي مطّرد . وفي خضم ثورة الفكر هذه يُعمِلُ قانون تطور اللغات واحتكاكِها نصلَه – بغير هوادة –في كل لسان قصّر عن مجاراة النمو المطّرد للفكر العالمي ، و تكون الغلبة للسان الفتّ الطموح المواكب عصرَه في كل علم و كل فن . فلا بد لكل لغة من أن تساير الفكر في سيرورته . أما إذا انقلبت الآية ، و صار الفكر تابعا للغة ، جَمُدَ الفكر و يَبِسَت اللغة وهَرِمَت طاقة التجدد .

و لنا في استقراء التاريخ شاهد على أن قوة لغة من اللغات ، وصلابتَها في معترك الاحتكاك بغيرها من ألسنة أممٍ غازيةٍ أو مجاورةٍ إنما يُقاسان بقوة و صلابة الحضارة و الفكر اللذين تمثلهما تلك اللغة في العصر الذي وقع فيه الاحتكاك ، و أن اللغة – في حد

ذاتها – هي غير ذات بال يُذكَر في هذا الصراع ، و إنما الفكر الذي تنعكس صـــورته في صفحتها. فإن كان هذا الفكر من القوة بمكان وقف من أمامها درعاً ومن ورائها سَنَداً بما يكتب لها البقاء و الصمود في مواجهة المد اللغوي الدخيل مهما بلغ من عُتُوٍّ و بأس . على أن عصف اللسان الدخيل باللسان القومي لا يحول دون تأثير كليهما في الآخر، بـــل إن اللغة المنتصرة في هذا الصراع تخرج بمحصول من مفردات اللغة المنهزمـــة ينـــضاف إلى معجمها كما هو في الأصل أو مُطَوَّعاً بما يوائم الأصوات اللغوية للّسان المنتصر . أما إذا تعادل المصطرعان و لم يُقَوِّضْ أحدهما الآخر ، فإنهما يتجاوران في الموقع المكاني الواحـــد دون أن يمتنع أحدهما على الاقتباس من خَصمه و الأخذ عنه .

هكذا هَزَمَت اللاتينية اللغات الأصليةَ لإيطاليا و أسبانيا و أرض غالة (الجـــول) La Gaule (فرنسا و ما إليها) و الألب الوسطى Centrales Alpes وإليريا Illyrie عندما فتح الرومـــان وســـط أوروبا و جنوبها وشرقها ، رغم أن الرومان كانوا أقلية فى هذه البلاد قياساً إلى ســـكانها الأصليين . وهكذا سادت اللاتينية أوروبا عدة قرون باعتبارها لسانها الموحَّد الفـــصيح فى لغة العلوم الطبيعية و الفلسفة . ثم هكذا هُزِمت اللاتينية من بعدُ فى إيطاليا بلغة الـــشعر وحدَه كما جرى على لسان بترارك Petrarch و دانتى Dante.

و فيما يشبه انتصار اللاتينية فى سالف عهدها سادت اللغة الآرامية البلادَ الناطقة بالأكادية و الفينيقية و العبرية بعد أن غزاها الآراميون.

و هكذا أيضاً انتصرت العربية على القبطية المصرية و على البربرية فى الشمال الأفريقى و على الكوشيتية Courbitique في قسم من الشرق الأفريقي بعد الفتح العربي لهذه الأنحاء جميعا .

لقد كانت الغلبة في هذه الصراعات اللغوية غلبةَ فكر على فكر أدنى منـــه،وليس بالضرورة غلبة حضارة على حضارة أحطَّ منها،فحضارة العرب الذين فتحوا مصر لم تكن تنعم بما لحضارة المصريين من مجد تليد ، فهذا مما لا يمارى فيه أحد ، بل إن حضارة العرب إذ ذاك لم تكن بعدُ قد شبّت عن طوق البداوة إلى قُتُوَّة الحضارة التي دبّت في أوصالها بعد أن خالطت أمماً قطعت من قبلها أشواطاً كبيرة على دَرَج الارتقاء و التمدُّن . فأىُّ فكـــرٍ عربي ذاك الذي كُتِبَت له الغلبة على فكر المصريين ؟ إنه فكر القرآن بغير شك و ما انتظم من قِيَم إنسانية رفيعة تعلو على فكر البداوة و الحضارة جميعا . ولم يكن اللسان الغالب في كل ذلك إلا مظهراً ثقافياً لتلك الغلبة. بيد أن اللسان المصري القبطي لم يكن هـــشّاً إلى

الدرجة التي تُخضَدُ عندها شوكته دون عناء في مواجهة الموجة العاتية للغزو العربي ، فقد اشتبكت العربية والقبطية في صراع مرير بحيث ظل انتشار العربية بطيئاً إبّانَ القرن الهجري الأول إلى أن وَلّى الوليد بن عبد الملك بن مروان أخاه عبد الله على مصر فأمر عام ٨٧ من الهجرة (٧٠٥ م) بنسخ الدواوين بالعربية بعد أن كانت تُكتب باليونانية ، لا القبطية كما هو شائع خطأً ، أما القبطية فقد كانت لغة الحديث بين المصريين .

وطفق التحول من الكتابة باليونانية والحديث بالقبطية إلى الكتابة والحديث بالعربية يأخذ مجراه بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى جاء القرن الرابع فتحول اللسان المصري إلى العربية ونسيَ القبطية ، حتى أصبح رجال الكنيسة أنفسهم يلقون مواعظهم بالعربية.

ولا يعنى ذلك انقراض القبطية في مصر لأن المقريزى يذكر انتقال المأمون في ريف مصر و معه مترجم، و قد كان دخوله مصر سنة ٢١٧ للهجرة . كما يذكر المقدسي في " أحسن التقاسيم " المؤلف سنة ٣٧٥ للهجرة أن القبطية كانت لغة حديث بعض مسيحيي مصر ، يُضاف إلى ذلك أنها لم تزل إلى يومنا هذا لغة الطقوس الدينية الأرثوذكسية .أضف إلى ذلك تغلغلها في العامية المصرية على نحو بالغ الوضوح .

و لعلك ترى الآن الفرق بين الفكر الإنساني في لحظة تاريخية معينة عند نقطة تقاطع زماني – مكاني محددة وبين الخلفية الحضارية للموقع الذي اشتعل به أُوار الصراع اللغوي .

و كم من أمم قهرها الغزو الأجنبي فلم يفُتَّ في عَضُدها اللغوي ، و لم ينل من لسانها أدنى منال لأنها كانت أمماً ذاتَ شأوٍ بعيد في الحضارة الإنسانية، و لنا في مصر في مواجهة الاحتلال البريطاني في عصرها الحديث أبلغ مثال و دليل على ذلك .

و عندما قَوَّضَ الغزو الجرماني الإمبراطورية الرومانية الغربية في مطالع العصور الوسطى فَشِلَ اللسان الجرماني في قهر اللاتينية بأرض غالة. وبالمثل فَشلت اللاتينية في قهر لغات بريطانيا رغم غزوها من قِبَل الرومان واحتلالها نحو القرنِ و نصف القرن من الزمان.ومن قبل ذلك فَشلت اللاتينية في التغلب على الإغريقية لأن الإغريق ، على خضوعهم للرومان، كانوا ذوى بأس حضاري و فكرى ولغوى لا يُستهان به تجلّى فيما ترك من بصمات إغريقية واضحة على لغة اللاتين.

وكذلك فَشلت العربية في قهر لغة الفرس بعد غزوهم لأن الشعب العربي لم يكن إذ ذاك أرقى حضارةً من الشعب الفارسي ،ولكن الفكر القرآني كان أمضى من نصل السيف في انتشار العربية على لسان الفرس في مجاورة للغتهم القومية فيما يُعرَف في علوم اللسانيات المعاصرة بالثنائية اللغوية Bilingualism ، و إنك تعلم أنه قد خرج منهم جهابذة العلماء والفلاسفة وفقهاء العربية و الأدباء ممن أثرَوْا حضارة العرب بمصنّفاتهم التي وُضِعَت بلسان عربي مبين. و إذا كان الصراع بين العربية و الفارسية لم يُحسَم لصالح أيهما فإن كلتا اللغتين قد تركت آثاراً بالغة الجلاء من مفرداتها على لسان الأخرى .

أما فشل العربية في قهر اللغات الأسبانية رغم احتلال العرب الأندلسَ زُهاءَ سبعة قرون ، فإنه راجع إلى اختلاف الفصائل اللغوية بين لغة العرب و لغة الأسبان من جهة، و إلى عدم امتزاج الدم العربي بالدم القوطي امتزاجاً كافياً من جهة ثانية ، و إلى تصدى العقيدة المسيحية الكاثوليكية للمد اللغوي العربي على اللسان القوطي من جهة ثالثة ؛ وهذا لا ينفى تأثُّرَ الأسبانية و البرتغالية بالعربية تأثراً بالغاً ، و لكنه لا يرقى إلى درجة القهر و محو الشخصية اللغوية .

و قد عَجَزَ اللسان التركي عن إقحام نفسه على لغات جُلّ الأمم التي غزتها الدولة العثمانية لا لاختلاف الجذور اللغوية بينه و بينها فحسب، وإنما بالأحرى لضعف ثقافة الترك وافتقارهم إلى فكر قادر على التغلغل إلى الروح الحضاري للأمم التي قهروها بقوة السلاح ، حيث يبرهن لنا التاريخ على أن هذه القوة الغشوم هى أعجز من أن تفرض لغة بلا فكر ماثل في تراث أدبي أو علمي أو ديني .

أما و قد أثبتت العربية ، في محك الزمن ، أنها لغة حية ، تؤثّر وتتأثر بالطبع لأن هذا من سمات الأحياء دون غيرهم ، فإن السؤال الملحّ الذي نطرحه : " هل قصّرت العربية عن الإسهام بالدّور الذي ينبغي لها في التراث الإنساني ؟ " و بفرض أنها لم تَخُرْ و لم تتوانَ عن هذه المسؤولية المصيرية فيما أبدعت من آداب على امتداد تاريخها ، أتراها تخلّفت عن ملاحقة علوم العصر (الطبيعية منها بخاصة) فما عَتَّمَت أوراق العلم أن ذوت و تهاوت من دوحتها ، بينما أينعت جاراتها أوراق الأدب ؟

و السؤال الأرحب من هذين : " لمن السيادة على الآخر في العقل العربي:للّغة أم للفكر ؟ ". إنها الطامّة الكبرى إذا كُتب للغة الغلبة على الفكر لأنه لا يملك آنذاك إلا الانـضواء تحت لوائها ، و تفيّؤَ فَيْءِ ملصقاتها الجاهزة العتيقة اتقاء حرارة التجديد و جذوة التوثب والتحفز للحياة .

يقول الجرجاني في أسرار البلاغة : " ... فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس[٥] من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى ... و ذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعاني و المصرَّفة في حكمها ، و كانت المعاني هي المالكةَ سياستها ، المستحقةَ طاعتَها. فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، و أحاله عن طبيعته ..."

لا مفرَّ إذن – إن أردنا بعربيتنا خيرا – من إطلاق الفكر من قمقم اللفظ .بل إن اللفـظ ذاته كائن متجدد قابل للتدوير و التشكيل والإيحاء بمثل ما هو قابل للإحياء و البعث من دياجير المهمل والمهجور. و السيد المطاع الذي لا رادَّ لأمره في كل ذلك هـو الفكـر و حاجاته المعاصرة و نهمه إلى الاغتراف من علوم العصر و فنونه ، لا نهمَ السَّغب الـذي لا يلبث أن يتراخى و يخلُدَ إلى السُّبات بعد الامتلاء ، وإنما نهم المبدع الذي يَلْقَمُ ليُغـذى و ينهَل ليروى .

و اللغة " مسكن الكينونة " على قول " مارتن هيدجر " لأنها المسرح الذي ينبثق عليه الوجود ، و لا يخفى مفهوم الانبثاق أو البزوغ في كلمة الوجوديةExistentialism في غير العربيـة من لغات.والهاجس الذي لا يني يطارد كل عربي مشتغل بالعلم هـو موقـع لغتـه – و بالأحرى فكرِه و من ثم وجودِه – من تراث الإنسانية وتيارات ثقافاتها المتعددة التي تجنح في عالمنا المعاصر إلى تحقيق أقصى قدر من التقارب و الوفاق و التواضـع علـى توحيـد المصطلح حتى يقرأ العالم كله فكرا إنسانيا شاملا Cosmopolitan لا تلبيس فيه و لا لغو ، متاحـاً لكل مواطن عالمي في لغته الخاصة عن طريق الترجمة .وها هنا تُلقى على كاهل الترجمة أمانةُ نقل الفكر باللغة الجارية جريان النهر المتجدد ، لا اللغة الآسنة التي لا تموج و لا تضطرب لكل خَلْجة من خلجات الفكر الدءوب على النمو و الارتقاء و التطور . هـذا و لا تعنى سيادةُ الفكر على اللغة أن يتحول اللفظ إلى كائن مُصمَت مُعتِم ، بـل إن الفكـر

يستلهم اللغة فتشحذه ليصير مبضَعُه أكثرَ مَضاءً في جسمها كشفا عن مكنوناته و ممكناته و تداعيات الفكر في أحشائه .

و إننا لنقرأ العلوم الطبيعية من فلك و فيزياء و جيولوجيا و طب وبيولوجيا و حيوان و نبات و ما إلي ذلك ، و نقرأ العلوم الإنسانية من فلسفة و اجتماع و ما إليهما ، و نقرأ الأنثروبولوجيا و علوم اللغة واللسانيات ، و نقرأ النقد الفني الذي أصبح علما لا مراءَ فيه سواءٌ تناول عملا شعريا أو روائيا أو مسرحيا أو سينمائيا أو موسيقيا أو تشكيليا ، نقرأ هذا كله في غير العربية فنلقى مصطلحا عبقريَّ النفوذ إلى لب المعنى كما أملاه أو اشتقه أو أجازه أو نَحَتَهُ الفكر الثاقب السابرُ غورَ اللغة التي ينطق بها . و إننا إذ نطالع المعجمات أو الموسوعات التي أُفرِدَت لكل علم من هذه العلوم و غيرها (في لغات الغرب) نلقى توحيدا وإجماعا لا يُشق لهما غبار ، بما يوصد منافذ الخلط و يُغَلِّق أبواب التخبط أمام القارئ والباحث و الكاتب جميعا . ثم إننا نطالع نظائر هذه المعجمات والموسوعات في لغتنا العربية في مختلف الأقطار الناطقة بها ، فنلقى خُلفا ما وراءه خلف و شقاقا ما بعده شقاق . و هذا على الرَّغم من الجهود المجمعية لمجامع اللغة العربية فرادى و جمعاً ، و جهود مؤتمرات و ندوات المجامع و الاتحادات العلمية و المهنية و الجامعية التي كان شُغلها الشاغل دائماً توحيدَ المصطلح العلمي العربي منذ المؤتمر الأول للاتحاد العلمي في الإسكندرية عام ١٩٥٣ و المؤتمر الأول لاتحاد المجامع اللغوية عام ١٩٥٦ و مؤتمر التعريب الأول في المغرب عام ١٩٦١الذى كان باكورة ستة مؤتمرات للتعريب على امتداد سبع و عشرين سنةً حتى عام ١٩٨٨ ، و مؤتمر توحيد المصطلحات العلمية في الجزائر عام ١٩٦٤. و قد بذل مكتب مؤتمر التعريب جهداً لا يُنكَرُ ، إذ أنجز ثلاثة و ثلاثين معجماً متخصصاً حتى بلغ عدد المصطلحات التي وحّدها حتى عام ١٩٨٣ سبعين ألف مصطلح في ثلاثة و عشرين علماً مختلفاً .

و إذا كانت مهمة التوحيد الاصطلاحي كما عيّنها إبراهيم بيومي مدكور في مقدمته لمجموعة المصطلحات التي أقرّها المجمع اللغوي المصري هي : "وضع مصطلح واحد للمفهوم العلمي الواحد ذي المضمون الواحد في الحقل الواحد " (د. إبراهيم مدكور ، مجموعة المصطلحات التي أقرّها المجمع – ج ٩ : ١ – المقدمة) ، فهل وَضعَ مكتب مؤتمر التعريب – في المهمة الجليلة التي اضطلع بها بإنجازه هذه المعجمات المتخصصة – نُصُبَ

عينيه هذا المنهجَ الحادَّ في دقته و إيجازه كما ورد بعبارة مدكور ؟ و إذا كان قد وُفِّق إلى ذلك ، فهل حَظِيت العربية، بالفعل لا بالجهد النظري الشكلي ، بهذا التوحيد للسانها العلمي بين الأقطار العربية كافةً ، قانعةً به، راضيةً مرضيّةً ؟ و هل اطّرحت العربيةُ من لسانها العلمي كلَّ ما خالف ذلك التوحيد الاصطلاحي فأُقفِل بابُ الاجتهاد الفردي في وجه من طَمَحَ إليه من بعدُ ؟ و هل أُنجِزَ ذلك التوحيدُ بمباركة و تصديق اتحاد المجامع اللغوية العربية أم بعضِ المجامع و حسْب ؟ و هل روعِيَ على سبيل التوحيد تلك اعتمادٌ للقواعد و الأصول التي ينبني عليها التوليد والاشتقاق لما يستجدُّ من مصطلح في علوم لا تني تُضيفُ كلَّ يوم مزيداً من المفردات إلى لغتها بطبيعة ما تقتضيه حاجة العلم المُلحّةُ إلى توسيع لغته بحكم التوَسُّع في فكره و مفاهيمه و كشوفه ؟

الحق أن باب الاجتهاد الفردي لم يُقفَلْ ، فالإصدارات العربية من معجمات العلوم لا تتوقَّف ، لأنك لا تملك منعَ اجتهادِ مجتهد ، و لا ينكر منكرٌ أنَّ البعض من هذه المعجمات سمينٌ ، غزيرٌ في مادّته ، و إن خرج على إجماع مؤتمر التعريب في بعض مصطلحاته ، و لا ينكر منكر في المقابل أن الكثير من هذه المعجمات غَثٌّ في مادته مُغرِبٌ كلَّ الإغراب في مصطلحه ، بل غاصٌّ بالأخطاء العلمية الفادحة في الترجمة ، فإنك تلقى في معجم " حتِّي " الطبي ، مثالاً لا حصراً ، (و هو أشهر المعجمات الطبية العربية قاطبة وأكثرها رواجاً) كلمةَ mitral (و هي من أيسر و أشهر مصطلحات القلب تشريحاً و أمراضاً) مترجمةً هكذا : " إكليلي ، تاجي "، و من المعلوم لطالب الطب بل لطالب المرحلة الإعدادية و الثانوية أن الإكليلي أو التاجي لفظة متعلقة بالشرايين التاجية للقلب و أن المرادف الإنجليزي لكلمة تاجي أو إكليلي هو coronary، أما لفظة mitral فإنها تسميةٌ متعارفٌ عليها لأحد صمامات القلب ، و لا تحتمل ترجمةً بل تُعَرَّبُ كما هي إلى كلمة " ميترالى " .

و هكذا ترى أن الفُرقة بين العرب ضاربةٌ أطنابَها في لغتهم العلمية بمثل ما هي ضاربة أطنابها في لغتهم الأدبية ، فإن لغة الشعر و الرواية ولغة الترجمة الأدبية و لغة النقد في لبنانَ مثلاً ليست بلغة هذه الفنون في مصر، و إذا كانت هذه الفرقة أمراً وارداً، بل طبيعياً و مطلوباً في لغة الأدب من حيث إنَّ الإبداع الأدبي يقتضي التعدُّدَ في الاتجاهات والمشارب ، فإنَّ هذه الفُرقةَ في اللسان العلمي مُنكَرةٌ أشدَّ النُّكرِ لأنها تعكس تشتُّتاً في الفكر العلمي العربي ، وتضعه في صورة العاجز عن استيعاب علوم عصره والتعبير عنها في لغته بوضوح

obeikandi.com

و دقة ، كما أنها تُحطُّ من شأن العربية ، فينال منها النائلون ويثيرون الشكوك والهواجس في قدرتها على التعبير عن علوم العصر ، حتى رأينا بنى العرب أنفسَهم يَصِمونَ لغتهم بالعجز عن مجاراة العلم الحديث في لغته ، و يُرَوِّجون للقول الخائب المأثور : " بأنها لغة أدب لا لغة علم " .

و إنه لمثار للعجب و التساؤل أن يُكَلَّلَ مطمح لغات الغرب – على تعدد أصولها – بالتوفيق إلى التوحيد الاصطلاحي في العلوم و الفنون ،

و ذلك باصطناع الجذور اللاتينية و اليونانية توليدا و اشتقاقا و نحتا حتى في اللغات الأنجلوساكسونية و السلافية و سواها من ألسنة لم تنحدر من أصل لاتيني أو يوناني ، بينما ألمّ باللسان العربي العيُّ والحَصَرُ عن حسم هذه المسألة و المهمة الحضارية حسماً نهائياً شافياً .

ليست اللاتينية باللغة المهجورة المطويّة في ذاكرة التاريخ ، كما يردّد البعض ، لأنك تلقاها حية نابضة نبضَ القلب الشاب من لغة كل علم

و كل فن . نعم اطّرحتها الألسنة لغةً للتخاطب بمثل ما انفتحت لها مصاريع العلوم و الفنون لغةً للتواصل العالمي . نعم ضاق المتكلمون ذرعا بتصاريف أفعالها و حركات الإعراب في بنيتها العبارية، ولم تَضِق بها المعجمات و الموسوعات المتخصصة للتعبير الذي لا يتنكّب جادة الصواب و حسنَ الإصابة لمعناه المنشود . و الأكثر من ذلك أنّ العديد من ألفاظها و عباراتها دخل دخولا يسيرا غير متكلّف على اللغات الغربية ينطق به لسان المثقف بمثل ما يجرى على لسان رجل الشارع ، في اللغة العاديّة غير المتخصصة ،بلا عناء ولا مشقّة.وقد أفردت هذه اللغات الرَّحبة المعجمات الخاصةَ بالدخيل عليها من مفردات الكلام المعتاد وغير المعتاد المستعارة من اللاتينية ومن جاراتها الدانيات وجاراتها القاصيات –ومن بينهنّ العربية دون شك – إذ أيقنت أنّ الدخيل ، في موضعه الصائب ،نصلٌ أوكامى حادّ القطع في الإفصاح عما يعتمل في الفكر بدقة لا يأتيها الباطل من بين أيديها و لا من خلفها . و لم تَحُلْ في ذلك كله أَثَرةٌ وطنية و لا نُعرةٌ قومية دون تجديد الدماء و تدفقها في عروق هذه اللغات وَفقَ مقتضيات العصر وحاجات الفكر الطارئة عليه.

و إنك لتجد في الإنجليزية طائفة من الكلمات الفرنسية و اللاتينية والإيطالية و الألمانية بل العربية الأصل ، حتى إن هناك من معجمات الإنجليزية ما يورد مفرداتٍ و عباراتٍ

كاملةً مستقاةً مما يربو على أربعين لغة أجنبية ، و تجد مثل ذلك في معجمات كبرى لغات العالم الحية باعتبار الفكر – بكل أدواته من لغات شتّى – ميراثا عالميا و حقا مكتسبا يسمو بحركة التطور المعرفي للذهن فوق تحديدات المكان والزمان معاً .

و يثير عجبَ المطالع لمعجمات علوم اللسانيات العربية – و هي أَوْلى من غيرها من العلوم كافةً بالرعاية اللغوية – اختلافُ المصطلح العربي المرادف للإنجليزي أو الفرنسي بين قطر عربي و جاره القطر العربي على الرَّغم من وحدة اللسان العربي و غنائه عن اصطناع جذور دخيلة عليه بمثل ما فعل الغرب في اصطناعه اللاتينية . و هذا لا يعني امتناع اللاتينية و غير اللاتينية من لغات الغرب على الولوج في صُلب العربية كلما اقتضت الحاجة ، كأن يلقى المترجمون عُسرا في اقتناص الكلمة العربية التي تؤدِّى المعنى على وجهه الصحيح ، أو أن تكون اللفظة الدّخيلة ذات رواج و حظوة على كل لسان لسهولتها بالقياس إلى اللفظة العربية أو لدُنُوّها غيرَ مُدافَعٍ من روح المعنى ، أو لكليهما معاً

و إن قضية المعجم العربي لا تقتصر على لغة العلوم الطبيعية والإنسانية فحسب ، و إنما تمتد لتشمل معاجم اللغة العربية ذاتَها . فأكثر هذه المعاجم بَعُدَ به العهد كلَّ البعد عن عصرنا ، و اكتظَّ بالغريب والمهجور من المفردات ؛ و لا يعني ذلك أن نجحد القيمة التعليمية الباقية أبد الدهر لهذه المعاجم لكل قارئ للتراث العربي من شعر و نثر ، كما لا يعني ذلك أن داعياً إلى التجديد أو مُدّعياً له يملك أن يُلقِيَ بهذه المعاجم إلى مستودع المنسيّ و الممجوج من ذاكرة الثقافة العربية ، ثم لا يعني ذلك أيضاً أن نَجحَدَ الجهود النبيلة لمجمع مصر في التوفر على إصدار معجم وسيط و آخرَ وجيز و ثالثٍ كبير صدرت منه إلى اليوم بضعة أجزاء .

و لكنّ الذي لا شك فيه هو أننا بأشد الحاجة إلى المزيد من المعاجم العصرية بمعنى الكلمة ، التي تعتمد الأساليب الغربية في المداخل إلى موادها ترتيباً أبجدياً على ما تجيء عليه لغة الحديث و الكتابة ، لا على ردِّ الكلمة إلى مصدرها الأصلي كما هي الحال في السواد الأعظم من المعاجم العربية التي بين أيدينا اليوم . و لا بد في هذا المقام من الإشادة بمعجم " المنجد " الذي احتفى به رجل على رأس المجمع المصري إذ قال : "إن أبسط الأمور في

تبويب المعاجم أن تُرَتَّبَ الكلمات على حسب نطقها لا على حسب تصريفها ، و هذا ما انتهى إليه فن المعاجم الحديث ، و إن من اليسير تطبيقه على العربية و إن تكن لغة اشتقاق ".

و من العيوب الملحوظة في المعاجم الوسيطة و الوجيزة أيضاً غياب الفعل المضارع عن مداخلها الفعلية علماً بأن تصريف المضارع من أدق دقائق اللغة ، فكيف يُتاح للمتعلم أن يعرف أن " حَرَصَ " يقابلها في المضارع "يحرِصُ " وليس " يحرُصُ " أو " يحـرَصُ " أو أن مضارع " عَجَزَ " هو " يَعجِزُ " و ما إلى ذلك.
و بالجملة فإن المعاجم العربية بحاجة ماسّة إلى التجديد شكلاً وموضوعاً ، و المراد بالشكل هو الترتيب و التبويب ، و بالموضوع إثراء المحصول المعجمي بالمزيد من المفردات المعاصرة التي لا غنى عنها في زمن تبدّل فيه وجه العالم و مضمونه بفعل العلم و المدنية .و لسنا بذاهبين في ذلك مذهب البستاني الذي دعا إلى تخليص المعجم العربي الحديث من المهمل والمشترك و المترادف و الأضداد و الفروق ، و إن كان ينبغي لهذه الدعوة أن تكون محل نظر على أن تُفرَدَ للمستبعد من هذا المعجم الحديث معاجم الخاصة به ، و لنا في معجمات الغرب المتخصصة في المترادفات synonyms والأضداد antonyms الأسوة في ذلك . كما لا بد للمعجم العربي من العناية بالتتبع التاريخي لنمو المفردات صوتياً و دلالياً، المهجورِ منها والجارى على اللسان المعاصر على حد سواء فيما يُعرَفُ عند الغرب بالإيتيمولوجيا etymology، و هو فرع أساسي من علم اللغة مهملٌ أيما إهمال في البحوث اللغوية العربية ، رغم أنه مفتاح التجديد في سائر لغات العالم سواء بالإحياء أو الاطّراح اللفظي .

أما مشكلة النحو العربي و الأسلوب الأمثل لدراسته فإنها تكاد تكون أُمَّ المشكلات التي تواجه دارس العربية ، يستوي في ذلك دارسوها من العرب و غير العرب .و واقع الأمر هو أن السّواد الأعظم ممن لا يُلحنون و لا يتعثّرون في الكتابة أو القراءة الصائبة للعربية إنما يكتفون بالقدر اليسير من قواعد النحو التي تعينهم على ذلك ، دون تعمق خباياه واكتناه أسراره التي تغصّ بها المراجع النحوية ، لأنّ ما يعلَقُ بذاكرتهم من النحو بعد إتمام تعليمهم المدرسي لا يتجاوز بضعة أسس من أخوات كان و إنّ والمبتدأ و الخبر و الجملة الشرطية و أدوات نصب و جزم الفعل المضارع و الفاعل و المفعول وصِيَغِ

الإضافة و أسلوب الاختصاص و الأسماء الخمسة و تمييز العدد و ما إلى ذلك من عُمُـــدِ للنطق و الكتابة السالمَيْن من الخطأ .

و إن كان ذلك يعنى شيئاً فإنما يعنى أن النحو ، مَثَلُه مثلُ أية صنعة أو أى فن ،تطبيقٌ قبل كل شئ ، ومسألة ذوقٍ و حِسٍّ لُغويّيْن سابقين على القواعد و النظَّريات الجافة التي تَـــرِدُ في المراجع التعليمية على نحوٍ يوقعها من نفس المتعلم أسوأ موقع ، و يُنزِلها من قلبه أســوأ منزلة بما يُكَرِّهُ إليه دراستها و يَكيدُ لها عنده فيقع الشقاق ، و تدُبُّ العداوة والبغضاء بين المتعلم و العلم الذي يقع له في تلك المراجع .و من تحصيل الحاصل أن نقول إن التطبيـــق كان أسبقَ من التنظير بعدة قرون في النحو و في الشعر أيضاً ، فقد جرى اللسان العــربي بلغته حديثاً وخطابةً و شعراً جرياً سالماً كما يجرى النهر في مجراه الطبيعـــي إلى أن خيــف على اللسان العربي من لسان الأعاجم بعد توسع الدولة الجديدة و دعـــت الحاجـــة إلى التنظير كما نَظَّرت اليونان من قبل الفلسفة والرياضيات و الطب و ما إليها ؛ فمن قائـــل إن أول النحاة هو الإمام عليٌّ ، ومن قائل إنه أبو الأسود الدؤلى ، ومن مُخَطِّـئ لهـــذين الرأيين وقائلٍ بأن عبد الله الحضرمي هو أول المتكلمين في النحو ، كل ذلك قبل صـــياغته النظرية على يد سيبويه إحياءً لعلم شيخه و أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدى الذي صنّف بحور الشعر ودوائر عَروضه بعد دهرٍ قرضته فيه العرب بالسليقة و الفطرة والممارسة.

و قد كانت هذه حال الموسيقى و حال الفنون التشكيلية في الغرب التي كان للتطبيـــق و الممارسة فيها السبقُ على التنظير بعدة قرون . وما النظريات الموسيقية و الائتلاف النغمي و السلم الكبير و الصغير والأبعاد و قلب صورها و الكونترابنط counterpoint، و مـــا نظريـــة اللون و قواعد التصوير الزيتي و المائي و النحت إلا بمثابة التقنين العلمي المجرد لما جادت به قريحة أجيال متعاقبة من المبدعين بالفطرة الذين لم يعنِهم في شئ أن توضَعَ لممارســـتهم النظرياتُ لأنهم كانوا – غير شاعرين – الواضعين الفعليين لما صيغَ من بعدُ مـــن قـــوانين نظرية أملتها في واقع الأمر موهبتهم .

و الذي نرمى إليه هو أن يعتمد تعليم النحو منهجاً وظيفياً تطبيقيـــاً مـــع الكـــثير مـــن التيسيرات التي تُعَبِّدُ للدارس طريقه ، و تُميطُ عنها الأذى والعسر اللّذيْن يعترضانها حتى اليوم .فلا بد من ثورةٍ على كتب النحو ومادته و على مناهج النحـــاة ، و حـــسبك أن تعرف أن ما يربو على الخمسة والخمسين باحثاً من أئمة العربية قد توفّروا علـــى شـــرح

كتاب سيبويه و تفصيل مشكلاته و أبنيته ؛ أفلا يكفينا هذا الوَلَهُ التاريخي بتراثنا النحوي حتى نشرع في توجيه مسعانا وجهة معاصرة صوب التيسير والتجديد والتنقية من العَسْف و التعالُم النظري الذي يحمّل الأمور فوق ما تحتمل ؟ فما جدوى التخريجات الإعرابية البالغة التعقيد التي تُسَوِّغ لك مثلاً نصب أو رفع أو جر الاسم الواقع بعد " لاسيّما "، أليس حسبَكَ علماً و تيسيراً أن تعرف أن جميعها صحيح دون استظهار لقاعدة الإعراب التي تُقَسِّم لاسيما إلى " لا " و " سيَّ " و " ما "حيث يختلف الإعراب في كل حالة من هذه الحالات الثلاث اختلافاً يوقعك في اللبس و التخبط ؟

ثم انظر إلى إعراب هذه الآية القرآنية :" لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ "، الكاف: حرف جرٌ زائد لا متعلّقَ له ، و مثله: اسم مجرور لفظاً في محل نصب نعت لخبر محذوف تقديره موجوداً ، و شيءٌ: اسم ليس مرفوع ، والتقدير : ليس شيءٌ موجوداً مثلَهُ ؛أليس هذا عسفاً في التنظير والتخريج ؟ ألا ترى أن الأيسر من ذلك أن تُعرَب " كمثله " جارّاً ومجروراً مع اعتبارها خبراً مقدّماً لليْسَ في محل نصب؟

هذا و لا يسعنا أن نُغمط الدكتور شوقي ضيف في كتابه " تيسيرات نحوية " و الأستاذ عبد العليم إبراهيم في كتابه " النحو الوظيفي " حقّهما فيما أنجزا على طريق تيسير النحو على متعلميه .كما لا يسعنا إنكار الجهد الرائع للأستاذ عباس حسن في سِفره الضخم " النحو الوافي "الذي يعرض النحو عرضاً عصرياً مفصّلاً بين يدَيْ من يريد الاستزادة دون أن ينوءَ بعبء الخوض بين طيات الأسفار القديمة حتى يظفرَ بضالّته منها .

ويلحق بمشكلة إحياء النحو و تجديده ، بل يرتبط بها ارتباطاً غير منفصم العُرَى مسألة التيسير اللغوي على الناطقين بالعربية ، و أهمية اجتناب الغُلُوِّ في التخطئة و التصيُّد لزلات القلم و اللسان في كثير مما شاع ، خطأً أو عسفاً ، أنه من غَلَط القول. و لكي نقتفي الصواب في مظانّه فإن علينا أن نعرض على لغة القرآن و على لغة الشعر و النثر مما أبدع فحول المُحدَثين ثم الأقدمين كلَّ تعبير لغوي يتراءى لنا أنه مثارٌ للرِّيَب والشُّبُهات.و نقول : "على لغة القرآن و لغة فحول المحدثين ثم الأقدمين" لأن لغة القرآن لغة عصرية بمعنى الكلمة ، وحسبك أنها حَفِظَت العربية من الزوال فيما تلا البعثة المحمدية من عصور بما فيها أشدُّها حُلْكةً و اضمحلالاً في الفكر، و أنها نشرتها في أصقاع ما كان لها أن تلفظ

بلغة الضاد لفظة واحدة ، و أنها طفرت بالخيال وباللسان العربي من سُترة الخباء إلى عنان السماء ، فبسطت للمخيلة الشعرية والأدبية آفاقاً من المكان و البيان لم تخبرها من قبل . فمن حيث المكان، لم يعرف البدوي من مراتع أو ملاعب لخياله البكر تتجاوز التحام صُفرَةِ أرضه بزُرقةِ سمائه، وما يرَصّع هذه السماء من لآلئ في دُجنة ليله ، و ما يفصل بينه و بين أحبّته من سهول وحُزون إذا ظَعَنت بهم البعير لربوع غير الربوع و ديار غير الديار . و بانتشار الدعوة و اتساع الدولة انطلق الخيال العربي من تخومه الجائرة إلي آفاقه الجديدة الشاسعة .

أما من حيث البيان فإن القرآن قدّم بين أيدي العرب معجماً جديداً من فنون البلاغة و البديع و البنية العبارية و الدّلالة اللفظية و النحو والصرف و الرُّخَص في القول و الأصوات اللغوية و المُعَرَّب و المشتق والدخيل و المولّد و النحت اللغوي بما يتحدى مرونة و إحكام أى نصٍّ عصري .

أما أن يكون لكتابات المحدَثين من فحول الأدب السبق المرجعي على كتابات الأقدمين في معرِض الاحتكام بين الصواب و الغلط في القول ، فإن له ما يبرره . أولاً : كونهم فحولاً لغويين تعيى الحيل من أراد أن ينال منهم نيلاً ، و ثانياً : كونهم معاصرين (و لا يشترط بالطبع أن يكونوا أحياء) ، لأننا نعيش هنا و الآن و ليس "هنالك" — "ذات يوم" ، و غنى عن التنويه أن الفكر في يومنا غيره في أمسه ، و ثالثاً : أنّ الوشائج بين المحدثين و الأقدمين أوثق من أن يُشكّك فيها الشُّكّاك ، أفلم ينهلْ أولئك من هؤلاء ؟ ثم ألم يَقِفْ أولئك الفطاحل المحدَثون حياتهم على تطوير لغتنا بحكم تطور الفكر و قضاياه الجديدة التي خاضت فيها أقلامهم بلغة جديدة و محصول لفظي لا يني يتجدد كل يوم بما ينضاف إليه من مفردات العصر؟ هم ينمازون إذن عن السّلف بكل المقاييس ، فمن ذا يملك أن يقطع عن فضلهم الجاري سبقَه إلى إصلاح غلط اللسان و هفوة القلم ؟

و من بين الهموم العتيقة الجديدة معا للعربية مشكلة الرّسم العربي أو ما يسمى بالإعجام أي النّقط للأحرف ، و الشّكل فتحا و كسرا وضما و سكونا، مما يقتضي قارئ العربية إلماما محكما بقواعد النحو والصرف حتى يسلم نطقه من اللحن إذا عَرَضَ له نص

غير مشكول ، و هو الأمر الطبيعي المألوف في جُلّ الإصدارات العربية من مؤلفات أدبية و علمية.

و يلتزم القارئ باستنتاج المعنى لكي يضع بنفسه علامات التشكيل فوق فعل مبنيٍّ للمجهول أو فوق مفعول لاسم أو فوق فاعل بَعُدَت به الشُّقّة عن فعله و ما إلى ذلك من صعوبات تستعصي على الحصر . أضفْ إلي ذلك تغير رسم الحروف وَفق موقعها من الكلمة بحكم الكتابة المتشابكة للأحرف العربية . و هذه ليست مشكلة طارئة على لغتنا، و إن كانت معاصرةً أبدا ، إذ نلقى جذورها عند العرب الأقدمين في اللهجات المتعددة للعربية قبل لغة القرآن و بعدها ، ونلقاها في اللّحن الذي طرأ على اللسان العربي في عصر توَسُّع الدولة الإسلامية و ترامي أطرافها إلى ما هو أقصى من تخوم الفرس و الروم ، مما أيقظ همَّةَ النُّحاة الأوّلين ، كما ذكرنا من قبل ، لكى يَطبّوا للسان أعاجم المسلمين و ما اعترى العربية الجارية عليه من أدواءَ بحكم العُجمة . أما فيما يتعلق بمشكلة الإعجام (النَّقط والشّكل) فقد تعددت جهود فقهاء اللغة القدامى و المعاصرين ،و من بينهم مجمعيون مُبرَّزون، لاجتياز هذا العسر الذي يظلّ حجر عثرة في طريق التعلم والمطالعة . فقدّم بعضهم حلولا غير عملية تفوق أضرارُها كل نفع مرجوّ، و تراجع الكثير منهم في شيخوخته عما توقدت له حماسته في شرخ شبابه من آراء ، و من بينهم العلامة الباقعة الدكتور على عبد الواحد وافى الذي لم يتردد في الطبعة السابعة من كتابه القيم " فقه اللغة " عن إعلان التراجع عن الرأى الذي اعتنقه في الطبعة الأولى الصادرة في الأربعينيات فيما يتعلق بمشكلة الرسم العربي .

و إذا كان الأوروبيون و من إليهم يسلمون من اللحن في القراءة فانك لا تستطيع أن ترد ذلك إلى أن رسمهم يعبر تعبيرا محكما عن أصوات الكلمات، و إنما هو راجع إلى أن لغة كتابتهم لا تكاد تختلف عن لغة حديثهم ، فيكفى أن يُرمَزَ للكلمة على أية صورة لينطق بها القارئ على الوجه الصحيح .

و هنا نبلغ همّاً آخر من هموم العربية هو مشكلة الازدواج اللسانى diglossia الناجم عن البون الشاسع بين الفصحى و العامية مما يخلق مستويين من اللغة أحدهما معياري standard و الآخر دارج colloquial . و تعانى العربية من هذا الازدواج اللساني بأشدَّ مما تعانى منه أية لغة

سواها على تفاوت في درجة الازدواج " الفصحعامى " بين قطر عربي و جاره . فمن بين المجموعات الخمس للهجات العربية العامية (المصرية و النجدية الحجازية و السورية الشامية و العراقية والمغربية) فإنك تجد أدناها إلى الفصحى مجموعتي اللهجات المصرية والنجدية الحجازية ، بينما تبعد المجموعتان العراقية و المغربية عن الفصحى بُعداً ملحوظا لتأثر الأولى باللهجات الآرامية و التركية والكردية و الفارسية و تأثر الثانية باللهجات البربرية حتى أصبحت عامية المغاربة أبعد اللهجات العربية قاطبة عن لغة الفصحى .و لهجات البدو في الأقطار العربية أفصح من لهجات الحضر و أقرب إلى اللسان العربي القويم ، و إنك تلقى هذه الظاهرة بين قبائل العرب التى تسكن الفيوم و بنى سويف و الشرقية والبحيرة من القطر المصري من أمثال الفوايد و الرماح و الحرابى والبراعصة و أولاد على و الضعفاء وخويلد و سمالوس الخ... بل إن لهجات القرى ، على وجه العموم ، أفصح من لهجات المدن و أشد تمنعا على الدخيل من الألفاظ ، و قد يُعزَى ذلك إلى العزلة التي كانت تكتنف مجتمع الريف قبل انتشار التليفزيون الذي أصبح لبالغ الأسف أول مربٍّ للنشء خُلُقاً و لسانا، وأسبق في هذا الدور من الأسرة و المدرسة .

و هذا يقودنا إلي هم آخر من هموم العربية ، و هو ازدواج أيضا ، إلا أنه أشد نكالا بلغتنا من سابقه ؛ و هو من مثالب الإعلام (الإعلان) المرئي ، فقد بث هذا الجهاز في بعض الأقطار العربية – وعلى رأسها مصر – ازدواجا بين الثقافة و الإعلام على صعيد الفكر ، وذوَّبَ التخوم والفواصل بين لغة كل من الثقافة و الإعلام و الإعلان فأفسد الفصحى وأفسد العامية بتركيز جهوده ، بل نقول – في غير مبالغة – بقصر مُهمّته على الترويج لسلعة "السّلطة " بمثل ما يروّج لأية سلعة تجارية،بل أسوأ، لأنّ الاختيار من بين عدة بدائلَ متاحٌ في تجارة السلع، أما " السلطة " فإنها السلعة الوحيدة المفروضة فَوْقياً كإعلان غير مدفوع الأجر و غير محدود بمساحة زمنية . و هذه شيمة كل إعلام مسخّر في خدمة الدّولة ، مكثف الجهد للسهر الدءوب على تجميل قسماتها ،و تزو يق ملامحها في عيني الشعب ، و تزيين كل ما تتخذ من قرارات أو تنفّذ من مشروعات حتى لا يكون في الإمكان أبدع مما كان ! و لا عجب أن ينصرف إعلام هذه حاله عن هموم الثقافة و المثقفين ، فليس من صالحه و لا صالح النظام المهيمن على مقاليده في شيء أن ينمو "

الرأي العام "public opinion" الذي كان منذ قرون خلت الطوفانَ الجارف المقتلع للدكتاتورية من أعمق جذورها في المجتمعات الغربية.
و بالتأصيل المنظم لهذا الازدواج المنكر بين الثقافة المعيارية (التي تقيم أَوَدَ الفكر و من ثم أدائه اللغةَ و ما ينتج عنهما من رأى عام مستنير) و بين الثقافة الموجهة و الأكثر انتشاراً (التي تئد الفكرَ و من ثم اللغةَ فالرأيَ) تُحقَن اللغة حقنا منكرا بآفة تسرى بسُمِّها السريع المفعول وغير الملحوظ معا في لسان أمة بأسرها .و هكذا تنحط اللغة تحت وطأة الدكتاتورية . وبالجملة : لا ديمقراطية بغير لغة سالمة من اللحن والانحراف، لأن عنفوانها – تحصيلَ حاصلٍ – من عنفوان الفكر ، فإن سَلِمت – وهي جسمه الحَيُّ الفائر –دلّت يقينا على سلامته وعلى وعيه الحضاري الكامل بحقوقه وبموقعه من العالم و من ثم قدرته على إبداع وجوده.

و ننتقل الآن إلى آفة أخرى من آفات العربية وهى مشكلة تعليمها للناطقين بها لغةً أولى . إن مسؤولية التعليم في عالمنا المعاصر هي محو الفوارق الطبقية بين الأفراد من جهة، و بين الأمم من جهة أخرى لفتح الأبواب الموصدة في وجه الفوارق الطبيعية و القدرات الشخصية حتى تؤتى أُكُلَها بما يُطلِق الملكات و يحرر المواهب إعمالا لمبدأ تكافؤ الفرص بين الأفراد على الصعيد المحلى و بين الشعوب على الصعيد العالمي ، حتى يُتاح لمن لم تُواتِهم الصدفة الجيوفيزيائية أو المناخية لينعموا بالثروة الكامنة في بطن أرضهم أو على سطحها من نفط غزير أو نبت وفير أن يُعمِلوا عقولهم و ملكاتهم ، جهد استطاعتهم ، لعتق أوطانهم من العبودية التى يفرضها القطب الواحد في عصر العولمة على كل من لم يملك إرادته و لم يعضّ عليها بالنواجذ .و من المؤسف أننا بدلا من مجابهة هذا التيار المتحدى بواسطة النهوض بالتعليم كما ينبغي لأمة ذات سبق حضاري ونهج احتذته الأمم التى جاورتها و الأمم التى عبرت بها غازية أو فاتحة – والحديث هنا عن مصر بالطبع – طفقنا نتوسّع فيه كمّا لا كيفا ، وتعهدناه بالإفساد والتزوير للتاريخ في المقام الأول بما يغتال فكرة القدوة و الرمز . و فيما اغتلنا القدوة التاريخية ، اغتلنا بالتبعية القدوة اللسانية المبينة في فصاحتها . و توفّر على ذلك تدنٍّ في مستوى المعلمين الذين اقتضى التوسع العشوائي في التعليم تفريخا كمّيا لا كيفيا لأعداد هائلة منهم . وأصبح المعلم الذي كان إلى عهد

قريب قدوة و رمزا مهيبا تجفَلُ له قلوب الطلاب و تهفو إلى مجاراته و محاكاتـــه علمـــا و سلوكا ،أضحوكةً و مثارا للسخرية و الهَذَر . وقد غذّى الترفيه (التسفيه) الإعلامي هذا الميل المنكر و سمّنه بما يبث من تمثيليات تُحطُّ من شأن المعلم و الطبيب بل والقاضي رمزِ الحق والعدالة . و بخلاف الأمم العربية الأخرى التي توفّرت على تعليم العربية بهمّة صادقة نصوح بعد أن تخلّصت أوطانها من الاستعمار ، تخلّفت مصر وأصبحت في مؤخرة القافلة في رعاية العربية والحرص على تعليمها للنشء بعد أن كان اللسان المصري الفصيح على عهد الاستعمار البريطاني نمطا و مثالا يتطلّع إليه العرب إعجابا و إجلالا . و إذا كان مبرر عناية تلك الأمم العربية التي سبقت مصر في رعاية الفصحى بعد الاستقلال هـــو تقـــويم لسان أخنى عليه دهر الهيمنة الفرنسية وما إليها من معاول الهدم الإمبريالية ، فان مصر لم تتعرض لمثل هذا النّيْل من لغتها القومية على يد المستعمر ،بل على النقيض من ذلك ، فقد نمت العربية و نمت الإنجليزية على لسان المتعلمين على قدم و ساق نماءً يفوق العربيـــة و الإنجليزية الجاريتين على لسان المتعلمين المعاصرين ، لأنك لا تملك إتقان لغة أجنبية كمـــا ينبغي إلا بإتقانك لغتَك الوطنية ، فان معيار الإتقان للّغة الأجنبية لـــيس قـــدرتَك علـــى التفكير بواسطتها و طلاقةَ لسانك إذا حدّثت بها و إنما قدرتُك على الترجمة عنها و نقـــل أفكارها و روح معانيها نقلا أمينا يتعمّق خباياها ويلتقط الدرّ من أغوارها.

و قد أصبح اليوم من الحقائق المسلم بها بين علماء اللغة و فقهائها أن خـــير الوســـائل لتعلّم لغة أجنبية لا يكون إلا من خلال اللغة القومية للمتعلم ، فلا غَرْوَ أن تضمحلّ اللغة الدخيلة على لسان بلغ من الفاقة في لغته الوطنية درجة يُرثى لها . الثقافة العالميـــة إذن لا تقوم إلا على ركيزة راسخة من الثقافة المحلية ، و الذات القومية المحددة القسمات عـــبر لسان قويم تَمُدُّ من هذا اللسان جسرا ممهدا إلى غزو فكر الآخر والتآثر و إياه .

و من بين هموم العربية التي فرضها عصر الكمبيوتر و الإنترنـــت (الـــشبكة البينيـــة للمعلومات أو البين–معلوماتية كما يروق لنا ترجمتها على هذا النحو) هو تخلف العربية تخلفا محزناً حقا عن احتلال الموقع اللائق بها في هذه الشبكة ؛ و قد كان الأجدر بهـــا أن تغتنم هذه الثورة الحقيقية في التواصل بين الأمم لنشر لسانها و آدابها و علومها الإنسانية، و هذا أضعف الإيمان . و لكنك لا تجد العربية على الإنترنت إلا في مواقـــعَ خُصِّـــصَت

للدعوة الإسلامية ، كما تجدها في مواقع بعض كبريات الصُّحف العربية ، و هذا وحـــدَه غير كاف من حيث إن بوسعك الولوجَ إلى مكتبات إلكترونية كثيرة منتشرة على هـــذه الشبكة لفتح و اقتناء ما لذّ و طاب لك من آداب الإنجليز والفرنسيين ، كمـــا يـــسعك مطالعة الفلسفة و العلوم الإنسانية والطبيعية في عشرات الآلاف من المواقع الإنجليزيـــة و الفرنسية وغيرها، أما إذا بحثتَ عن موقع عربي واحد يروى ظمأك إلى لغتك و إلى الفكر الذي تعبر عنه فسيَحْبَطَنَّ سعيُك لا محالة .

لقد مرّت العربية منذ ميلادها إلى عصرها الحاضر بأطوار شتى صعوداً و هبوطاً ، و كانت في كل من هذه الأطوار مرآةً صادقة لحالة الفكر السائد في كل طور ، كما كانت تعبيراً نابضاً بحاجات الفكر ومقتضياته في كل عصر. و كان من حسن طالعها ، منذ نعومة أظفارها ، أنّ عهدَ تشرذُمها اللساني و تفرُّق دمائها بين القبائل لم يلبث أن حُسِمَ بانعقاد اللواء للهجة قريش . والأمرالعجيب حقاً أنّ ما وَقَعَ لنا من أقدم الشعر الجاهلي لم يتعـــدَّ عمرُه قرناً و نصفَ القرن قبل نزول القرآن ، والأشدُّ عجباً منه هو أنّ أكثر هذا الشعر ، إن لم يكن جُلُّهُ ، لم تبدعْه قريش و إنما شعراءُ غيرِها من بطون العرب و قبائلها في عـــصر كانت فيه قريش – في عُكاظَ و ما إليها من محافل الشعر – حَكَماً عظـــيم الـــشأن بـــين الشعراء ، و ميزاناً حسّاساً لقريحتهم وفحولتهم الشعرية . ثم جاء فصالُ لهجة قريش على لسان القرآن توكيداً لحَظْوَتِها، و انتشالاً لها من لُجَّة البداوة إلى بسطة الحضارة . كـــان القرآن ثورةً نثرية على الشعر ، فإذا كان الشعر ديوانَ العرب كما يقال ، فإن القـــرآن كان بمثابة أول قصيدة نثرٍ مطوّلة فَجَأَت اللسان العربي ببيانها المحكم و إيجازها المبين في تحدٍّ للنثر والشعر لم تعرف له العرب و لا غير العرب نظيراً .

و لنضربْ مثلا بالاستطراد و التفريغ اللذين كانا من الخصائص الجليّة للشعر الجاهلي . و في ذلك يشبِّه الشاعر شيئاً بشيء آخر ، ثم يهمل المشبَّهَ إلى حين ، و يأخذ بالمُشبَّه بـــه فيصفه وصفاً يطول أو يقصُر وَفقَ هواه و على حسب ما تقتضيه الحال ، و هـــذا هـــو التشبيه القصصي ، عُرِفَ به النابغة البياني و لَبيدٌ بن ربيعةَ و غيرهما .

ودعْنا الآن نتأملْ من القرآن آيةَ النور :

" اللهُ نورُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ مَثَلُ نورِه كَمِشْكاةٍ فيها مِصباحٌ المِصباحُ في زُجاجةٍ الزُّجاجةُ كأنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زيتونةٍ لا شَرقيةٍ و لا غَربيَّةٍ يكادُ زَيْتُها يُضيءُ وَ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نورٌ عَلَى نورٍ يَهدى اللّهُ لِنورِه مَنْ يَشاءُ وَ يَضرِبُ اللّهُ الأمثالَ للناسِ و اللّهُ بكلِّ شيءٍ عليم ."(آية ٣٥/ النور) .أى استطراد وتفريغ هذان ؟ !

ثم انظرْ إلى هذا التحليل النفسي العاطفي البليغ و إلى تدخُّل العناية الإلهية و ما ينطوي عليه التعبير القرآني هنا من إيجاز و جمال :

" وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤمِنِين . " (آية ١٠ / القصص) .

ثم لنتأملْ هذا السَّردَ القصصي الفنى المعجزَ من سورة هود :

" وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى ماءَ كِ و يَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَ غيضَ الماءُ وَ قُضِىَ الأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الجُودِىِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالمين . وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنى مِنْ أَهْلِى وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنتَ أَحْكَمُ الحَاكمين.قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِين ." (آية ٤٤-٤٦ / هود).

أىُّ سيناريو و حوارٍ روائيَّيْنِ هذان ، ثم أى إيجاز و تركيز في هذه اللقطات المشهودة المسموعة التي تَزُجُّ بقارئها إلى غمرة الطوفان فانحسارِه، ثم إلى مشهد الأب النبي يستصرخ ربَّه متشفِّعاً لابنه الضال ، فيُجابُ في بيان لم تعرفه العرب و لا غير العرب شعراً أو نثراً : "إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ " .

نعم نزل القرآن بلسان عربي ، و إنما بغير ما جرت به العربية على لسان العرب ، لأنهم لم يعرفوا هذا البيان من قبله ، فعربيته ليست من عربية الجاهلية في شئ ، و ليست من شعر البداوة و لا من شعر الحضارة في شئ (حيث لم يكن الشعر الجاهلي شعرَ بدوٍ كلُّه و إنما كان ثمة شعرٌ للحضر بمثل ما كان للبدو شعرهم) ، و قد دعا ذلك محمداً إلى تلاوة القرآن على المسلمين بلهجاتهم القَبَلِيَّة المختلفة معاونةً لهم على فهمه وحفظه . وسواء اتفقنا أو اختلفنا مع عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في أن الشعر الجاهلي منحول كله ، و أن ما بقى بين ظهرانينا من امرئ القيس و زهير بن أبي سُلمَى و طرفةَ بن العبد و

من إليهم من شعراء الجاهلية إن هي إلاّ أسماء دَرَسَتْ وبادت آثارُها الأدبيـــة ، و أن مـــا وصلنا من هذه الآثار ليس إلا من انتحال الرُّواة و القُصّاص ؛ فإننا نختلف و إياه في قوله إن من أراد أن يلتمس حياة الجاهلية فليلتمسْها في القرآن لا في الشعر الجاهلي . لأنه إذا كان من شأن القرآن أن يُلِمَّ بجوانبَ من حياة الجاهلية تتعلق بأخلاقها وعقيدتها مما يقتضيه السياق القرآني ، و تتوجّه صوبَه الرسالة المحمدية على نحو مباشر، فإن القرآن لا يعنيه في شئ أن يصف لنا حياة البادية بسَمَرِها و تشبيبها وصيدها وأسواقها و العصبية القبلية التي أذكت نيران الحروب بين بطونها، كما أنه ليس من شأن القرآن أن يصف لنا حياة البدوي في ليل البطحاء و نهارها ، في غدوه و رواحه، و وروده وصدوره ، و مَتحه البئرَ وحُدائه الناقةَ ، كما ليس من شأنه أن يُقَدِّمَ بين أيدينا حالتَه الوجدانية فيما يكابد مـــن لـــواعج الشجن كلما طال أو قَصُرَ به البَيْن عن محبوبته ، أو ما يعتريه من مباهج الزهو والحبـــور إذا انسَلَّ في مأمن من عيون الرقباء و اغتنم خُلْسَةً للُقياها، أو ما يعالج من مشاعر الفخر والحماسة و الاعتداد بكرم المَحْتِد و الجود والإقدام وما إلى ذلك من خـــلال و خـــصالٍ اشتُهِرَتْ عن العرب .

لقد كان القرآن ثورة على الفكر من الخارج ، و ثورةً على اللغة من الداخل ، فلا عجب أن تكون عربيته لا كالعربية المألوفة للعرب ،و إلا ما كان التوفيق حليفَه إلى غزو القلوب بشكله الفني (الفورم form) قبل غزوه العقولَ بمحتواه و مضمونه المعنوى .ولنا في واقعة إسلام عمر بن الخطاب و إسلام غيره بيّنةٌ على ما نقول .

نريد أن نخلُص من ذلك كله إلى أنّ صلاحية القرآن لكل زمـــان ومكـــان ليـــست صلاحية مضمون و محتوى بما ينتظم من وقائع وأحداث و تعاليم فحسب ، و إنما هي قبل ذلك ، و بالأحرى ، صلاحية شكل فني وأسلوب بياني و بنية عبارية syntax و تفرُّد لفظـــي يغترف منه و يقتبس بقبَسه كل من ينطق بالعربية إلى يوم الدين . فلا جُنـــاح عليـــه أن يستعير تعبيراً قرآنياً فصيحا هنا أو هناك في الحديث أو الكتابة، أو أن يشتق مـــن ألفـــاظ القرآن و ينحتَ منها لُغَوِيّاً كما يحلو له، و أن يلتمس في القـــرآن مأمنـــاً و مـــستودعاً للاحتراز من الخطأ والخطل في القول كما أسلفنا لأن القرآن حارسٌ أمين على اللغة ، لم يتركْها و لم تتركْه يوماً واحداً منذ أربعةَ عشْرَ قرناً ، و لم يَقِفْ مشروعَه الثوري بإزائهـــا على مجرد إبلاغ الدعوة ثم خلعها من يده كمن يخلع قفازاً ، لأنه مسؤول عنها اليـــومَ و

غداً بمثل ما كان مسؤولاً عن فطامها من الجاهلية . لقد شبّت عن الطوق في رحابه، و إنه على إنمائها وصَوْنها لقادر . القرآن إذن ، لا الشعرُ ، ديوان العرب، لا بمعنى وثيقة حولياتهم ، و إنما لكونه الحفيظَ الأمينَ على مستقبل لسانهم، وإنّ لهم فيه لَحقوقاً لا تَنفَدُ أبداً ، و أولها استلهامه و الاقتباس منه و النقل عنه نصاً وتوليداً بما يساير روح العصر الذي نعيشه ، ويصون العربية في غدها كما صانها في أمسها ، و يُقَوِّمَ اللسان و يُقيله من عَثَراته.

منهج الكتاب :

إن من تشغله قضايا لغته هو قبل كل شئ مجتهد ما استطاع إلى الاجتهاد سبيلا ، و هو حلقة في سلسلة حلقات ممن سبقوه إلى الاجتهاد ، ثم هو ذو جهد متواضع على هذه الطريق الشائكة مهما بلغ هذا الجهد من جسامة ، لاسيما لو كان سابقوه في هذا المضمار قد وقفوا حياتهم على ما اجتهدوا فيه و جاهدوا من أجله . و لا مفر لمجتهد من تجشُّم وعورة السبيل التي شاء لنفسه أو شاءت له مقاديره أن يسلكها . و لا مفر له – و السبيل غير ممهدة – من أن يُعَرِّجَ على مزالق خطر ، و منعطفات غير آمنة ، و جُرُف هارٍ هنا ، و شَرَكٍ منصوب هناك ؛ بيد أنه متى عيّن لنفسه غاية ، و تثبّت طرْفُه على هدفٍ فإنه لا يملك أن يؤثر التّقية و لا أن يعود أدراجه من حيث أتى ، لأن من آمن بنبل رسالته لا يعرف من الطرق إلا ذوات الاتجاه الواحد، بل إنه يؤثر اتقاء الإياب لأن عيني رأسه المصوّبتين باتجاه غايته و شاغلته لا يمكن أن تسمحا لهذا الرأس بالاستدارة إلى الوراء.

و هو واقع في الخطأ لا محالة من حيث إنه مجتهد ، ثم هو رحيب الصدر للنقد بل مرحّبٌ بمقدمه ، محتف به ، مُنزِلُه من نفسه خير منزَل ما دام نقداً هادياً ومرشداً و مُقَوِّماً . و إن هذا العمل لَيَجْذَلُ بمعارضيه قبل مباركيه لأن أولئك يطمحون إلى الكمال ، و لا شك أن ملاحظاتهم تسلّط الضوء على أوجه النقص فيه بما يجعلهم جزءاً لا ينفصل من القافلة التي حملت الأمانة فأرّقها سموّ الغاية و نُبل المقصد .

و قد رأينا أن البحث في تجديد اللغة يقتضي منهجا تاريخياً نقدياً ينتظم من حياة اللغة ماضيها و حاضرها و مستقبلها . و لا يعنى ذلك بالطبع اضطلاع هذا العمل بتاريخ

آداب العربية و علومها ، و إنما المعنيُّ بالمنهج التاريخي بصدد التجديد هو الدراسة الانتقائية للنصوص الأدبية والعلمية من زاوية ما أحدثته في العصر الذي كُتِبَت فيه من تجديد لغوى . فالجزء الأول من هذا العمل يختص بالإجابة عن السؤال : " كيف جددت العربية دماءها على امتداد تاريخها ؟ " ، و إن شئت سَمِّه : " علامات على تاريخ تجديد دماء العربية " ، و قد اقتضانا هذا القسم الارتحال الطويل على درب النمو اللغوي للعربية منذ بزغت إلى الوجود حتى اليوم، فتتبعناها في مهدها الأول في الجزيرة العربية حيث خرجت إلى النور ، ووقفنا بإزاء الجاهليين وقفة تمحيص و تحقيق من جهة ، و نقد و تقويم من جهة أخرى ، ثم قَفّينا بفطام اللسان العربي و تدفق دمه اللغوي حارّاً فتيّاً في عروقه على يد القرآن ، ثم أتبعناه بحال العربية في صدر الإسلام وعهد الأمويين فالعباسيين (في العصرين العباسيين الأول والثاني) ، ثم في العراق و فارس و الشام و مصر والأندلس ، ثم عَرّجنا على ركود الدماء في عروق لغتنا ثم تَخَثُّرِها عند إطباق ليل الدولة العثمانية على سماء جُلّ الأمم الناطقة بالضاد . وقادنا التيار الطبيعي للمنهج الذي اعتمدناه إلى الحملة الفرنسية على مصر وإلى الدور المحوري الذي لعبته – مختارةً أو غيرَ مختارة – في شق الغيوم العثمانية عن الصّبح الأبلج الذي أيقظ العرب من مواتهم ؛ و كانت عيون مصر – بحكم دورها الرائد الذي قَيّضَها الله له – أوّل من اختلج لذلك البصيص من النور الذي ما عَمَّ أن غمر المنطقة العربية بأسرها . و تناولنا عصر التنوير و الإحياء بشيء من التفصيل ، لأن ثورة الفكر التي شملت حركة الترجمة الأدبية و العلمية والتأليف في عصر محمد على كانت استخراجاً فعلياً لجثة العربية من غياهب الجُبِّ التركي الذي تردّت إليه، و ساير بعثَ الفكر بعثٌ للّغة حوّلها من غُثاء يابس ذاوٍ إلى عود أملدَ نضير لم يلبث أن أصبح طوع بنان مدرسة الإحياء في الشعر العربي المعاصر بريادة أمير الشعر العربي أحمد شوقي والبارودى ، فالمدرسة التجديدية العقلانية بزعامة العقاد و مطران، ثم المدرسة الرومانتيكية الغنائية(أبوللو) فتيارات الشعر الحُرّ من بعد .

و لم يكن ذلك العود الأملد الجديد بالأقلّ طواعيةً للنثر منه للشعر حيث نَشطت حركة الإحياء في النثر ، و أخذت فنون نثرية لم تعرفها العربية من قبلُ تتوافد عليها تَتْرَى .

و قد كان شغلنا الشاغل في هذا القسم الأول من الكتاب البحث عن أساليب الأقدمين و المحدثين في تطوير اللغة دون محاولة لأخذ الوقائع على الرَّغام إلى أرض التنظير بإقحام

قوانين تفسيرية على الظواهر اللغوية المميزة لكل عصر . و لكننا وجدنا أنفسنا طائعين لتيار التحليل الفني للجماليات اللغوية في كل عصر ، إذ رأينا أنه لا جُناحَ على هذا التيار أن يجرفَنا في سبيله ، لأن الكشف عن تلك الجماليات هو من صميم مهمّة بحثنا.
كذلك اقتضانا المنهج الذي اختططناه الكشفَ عن مثالب اللغة ومواطن الوهن فيها أيّانَ وُجدت ، لأنّ من كان هَمُّه التجديد فلا مُنتَدَحَ له عن تحرّى العيوب و النقائص، و إلاّ فماذا يُصلح المصلح أو الطامح إلى الإصلاح ؟

و بعد الفراغ من البحث التاريخي النقدي صرفنا جهودنا صوب الحاضر و مشكلات العربية في واقعها الراهن التي عرضنا لها عرضاً سريعاً في هذه المقدمة ، فخصّصنا الجزء الثاني من الكتاب لهذا المبحث ، وأفردنا فصلاً قائماً بذاته لكل مشكلة ، و أفضنا في سرد النماذج العملية التي تجسّد كل مشكلة أمام القارئ تجسيداً حيّاً عارضين جهود الباحثين المعاصرين للتغلب عليها و اجتيازها ، و مدى توفيقهم في مسعاهم ، وعقّبنا على ما اقترحوا من حلول مع الإدلاء بدلونا جهد استطاعتنا في المواضع التي قدّرنا عندها – و قد يخوننا التقدير – أن يكون لرأينا قيمة تُذكَرُ أو فائدةٌ تُرجَى .

و بالجملة ، إن هذه إلا محاولة و دعوة إلى مشاركة الوعي العربي المعاصر في أشد قضايا عصره إلحاحا لأنها قضية هُوِيَّة و من ثمّ قضية موقع و منزلة من وجه عالم دائب التشكّل ، فإذا كان لنا ألا نقف منه موقف المتفرّج الذاهل عن نفسه ، الشارد عن مصيره ، الغافل عن دوره الإنساني، فلنشرع في تشخيص الأدواء ، و قد لا نَطبُّ لها اليوم ، و حسبنا منها التشخيص حتى نُعَبِّدَ الطريق التي سيتأثّر فيها المُداوون و المُطَبّبون خطانا في غدهم، و لِلّهِ دَرُّهم من مجددين ومصلحين ، و الله نِعمَ المستعان .

محمد راضي
الجيزة، يوليو ٢٠٠٥